الشكر

في كتاب الله عز وجل

إعداد

الدكتور/ طلال بن مصطفى عرقسوس

أستاذ مساعدة بكلية القرآن الكري

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث بخير الدعوات، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد:

فإن الله -عز وجل- خلق الخلق ليعبدوه ويشكروه، وأرسل رسله؛ ليبينوا للناس كيف يشكرونه؟ وبم يشكرونه؟ وماهو جزاء الشاكرين؟

ولأهمية هذا الموضوع في حياة الناس أحببت أن يكون بحثي في الشكر في كتاب الله تعالى، وإني لأسأل الله -عز وجل- أن يجعلني، وقارئ هذا البحث، وسائر المسلمين من الشاكرين لأنعمه، المؤدِّين لحقِّ ربِّهم عليهم؛ إنه سميع مجيب.

طريقة البحث والخطة التي سرت عليها:

لقد جمعت الآيات التي ذكر فيها الشكر، ومن خلال النظر والتأمل فيها، وضعت لكل آية أو أكثر عنوانًا، وقد رجعت في تفسير تلك الآيات إلى بعض التفاسير، ومن أهمها وأجلّها تفسير الإمام الطبري، والحافظ ابن كثير -رحمهما الله تعالى-.

وإذا مرّ بي حديث فإنّي أخرّجه، وأُبيِّن درجته من الصحة ما لم يكن في الصحيحين أو أحدهما.

وإذا مرَّت كلمة غريبة، فإني أوضح معناها في الحاشية.

هذا وقد قسَّمت هذا البحث إلى: مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: الشكر ومنزلته، وتحته ثمانية مطالب

المطلب الأول: معنى الشكر.

المطلب الثاني: خلق الإنسان للشكر.

المطلب الثالث: الشكر من صفات الله -عز وجل-.

المطلب الرابع: علم الله بالشاكرين.

****

المبحث الأول
الشكر ومنزلته

المطلب الأول: معنى الشكر

الشكر مأخوذ من شكرت الإبل تشكر إذا أصابت مرعىً فسمنت عليه، والشكور من الدواب: ما يكفيه العلف القليل[1]، يُقال: شكرته وشكرت له، وتعديته باللام أفصح، قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾[2]، وقال -جل ذكره-: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[3].

والشكر: «هو تصور النعمة وإظهارها، وقيل: الثناء على المحسن بما أولى من المعروف»[4].

وقال ابن منظور -رحمه الله تعالى-: «والشكر: مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، فيثني على المنعم بلسانه، ويذيب نفسه في طاعته، ويعتقد أنه موليها»[5].

والشكر مثل الحمد، إلا أن الحمد أعم منه، فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة وعلى معروفه، ولا تشكره إلا على معروفه دون صفاته»[6].

والشكر من أعلى منازل السائرين إلى رضا ربهم -جل وعلا-، وهي فوق منزلة الرضا، أو تزيد عليها، والرضا مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدون الرضا، وهو نصف الإيمان، إذ الإيمان صبر وشكر[7].

وقد أمر الله -عز وجل- بالشكر، ونهى عن الكفران، وأثنى على أهله، ووصف به خواصَّ خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن الجزاء، وجعله سبب مزيد فضله، وحافظًا لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسمًا من

---

(١) «لسان العرب» (٤/٤٢٤) مادة: (ش ك ر).

(٢) البقرة: ١٥٢.

(٣) لقمان: ١٤.

(٤) «بصائر ذوي التمييز» (٣/٣٣٤).

(٥) «لسان العرب» (٤/٤٢٤).

(٦) المصدر السابق.

(٧) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/٢٤٢).

أسمائه، والشكر غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباد الله تعالى[1].

«والشكر على خمسة قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألَّا يستعملها فيما يكره»[2].

والشكر ثلاث درجات: الشكر على المحاب، وهو شكر العبد ربه على ما أنعم عليه به مما يحبه العبد ويريده.

والدرجة الثانية: الشكر في المكاره، وهو أصعب من الدرجة الأولى، إذ الإنسان لا يحب ما يؤذيه، فإذا نزل به رضي به؛ لأنه قضاء ربه، فلم يظهر سخطًا، ولا جزعًا على ما نزل به.

والدرجة الثالثة: أن لا يشهد العبد النعم، وإنما يشهد المنعم بها سبحانه، فيشغله شهود المنعم، والاشتغال به عن النعم[3].

(١) المصدر السابق. قال تعالى: وقليل من عبادي الشكور سبأ:١٣.

(٢) المصدر السابق، وينظر: «بصائر ذوي التمييز» (٣/٣٣٧).

(٣) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/٢٥٣-٢٥٥).

المطلب الثاني

خلق الإنسان ليشكر

خلق الله -عز وجل- الخلق ليعبدوه، ويخلصوا له العبادة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4]. وعبادتهم له هي شكره -جل وعلا- على أن أنعم عليهم بنعمة الخلق والإيجاد، ونعمة الحفظ والإمداد، ونعمة إرسال الرسل، وإنزال الكتب لهداية الخلق إلى المسالك التي إن سلكوها استحقوا بذلك رضاه عنهم، وإحسانه إليهم بدخول الجنة.

وقال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[5].

فالله -عز وجل- هو الذي أوجد خلقه وأنشأهم من العدم، وكانت مادة الإنشاء هي هذه النطفة الأمشاج، وفي ذلك تذكير بضعف الإنسان، وأنه مكون من مادة لا حول لها ولا قوة، إن الإنسان خلق من شيء لو وقع على ثوبه لغسله، فكيف يتكبر على ربه فلا يعبده، ولا يتذلَّل لجلاله وعظمته، ولا يسعى في مرضاته.

(٤) الذاريات:٥٦.

(٥) الإنسان:٢، ٣.

إن من يعصي ربه أو يخالف أمره، ويكفر نعمه ليستحق أعظم النكال لجحوده وكفرانه.

فالشكر حقٌّ لله -عز وجل- على خلقه لما أسبغ عليهم من النعم التي لا يستطيعون عدها ولا إحصاءها، ولا يقدرون مهما اجتهدوا على إيفائها ما تستحقه من شكر، وقد خلقهم -تبارك وتعالى- لشكره وعبادته.

****

المطلب الثالث

الشكر من صفات الله -عز وجل-

الشكر من أعظم الصفات الحميدة التي يجب أن يتصف بها الإنسان، ولا عجب في ذلك، إذ الشكر صفة من صفات المولى -جل وعلا-، فقد سمى الله -عز وجل- بها نفسه، وقال - عز وجل -: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[1] وقال - عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[2]

وقال -عز وجل-: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[3]. وقال -عز وجل: ﴿إِن

(١) النساء:١٤٧.

(٢) فاطر:٢٩، ٣٠.

(٣) الشورى: ٢٣.

تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [١].

ومعنى الشكور: الذي يزكو عنده القليل من أعمال عباده فيضاعف لهم الجزاء.

وشكره لعباده: مغفرته لهم، ورضاه عنهم، وإجزال المثوبة لهم.

ولعل السرّ في اقتران وصف الشكور بالمغفرة والحلم، هو أن من شكره لعباده هو حلمه -جل وعلا- عنهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة؛ بل يمهلهم لعلهم يتوبون إليه ويرجعون، فيكون ذلك سببًا لشكرهم، وهو -جل وعلا- يغفر لهم سيئاتهم، ويتجاوز عن خطاياهم، فلا يؤاخذهم بها؛ بل يعفو ويصفح، إذ الشكور، هو الذي يعطي على القليل الكثير، وهو الغفور الذي يعفو عن التقصير، فما أحسن الجمع بين هذين الوصفين الجميلين.

المطلب الرابع
علم الله بالشاكرين

يجتهد العبد في طاعة ربه، ويجاهد نفسه في السعي في مرضاة مولاه، ومما يزيده رغبةً واجتهادًا في مواصلة عبادته علمه بأنّ ذلك كله لا يخفى على مولاه وحبيبه، فيزداد تزلفًا وتقربًا، وتذللًا وخضوعًا لإلهه.

وهذا كله مما لا يدركه الكافرون بربهم، العادلون به سواه قال -جل وعلا-: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [٢]. إنه -جل وعلا- هدى أولئك المستضعفين من المؤمنين إلى الإيمان لعلمه بشكرهم، فشكرهم سببٌ من أسباب هدايتهم للحق دون أولئك المتكبرين الكافرين لأنعمه تعالى.

وعلم هؤلاء المؤمنين بهذا مما يزيدهم قربًا من ربهم، ويدعوهم إلى الثبات على دين الله، وتحمّل ما يلاقونه

(١) التغابن: ١٧.

(٢) الأنعام: ٥٣.

من أصناف العذاب على أيدي الطغاة، ويحملهم على الاستعلاء على أولئك الكافرين، واستصغارهم.

ومن الآيات التي تدل على علم الله -عز وجل- بالشاكرين -وهو علمٌ مخصوص إذ هو علمٌ بشكرهم، وبما يشكرونه به، وبما يستحقونه من جزاء- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [١].

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى[٢]-:

«وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه، ولا ينقص شيئًا من أجر عمله مهما قلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٣].

(١) البقرة: ١٥٨.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٢٠٠).

(٣) النساء: ٤٠.

المطلب الخامس
الأمر بالشكر وأساليب القرآن في الدعوة إليه

دعا كتاب الله -عز وجل- الناس إلى الشكر وحثّ عليه، ورغّب فيه.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٤]. وقال -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٥].

قال الإمام الطبري -رحمه الله-:

«يعني بذلك -جل ثناؤه-: وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا، وينصركم ربكم، ولقد نصركم الله ببدر على أعدائكم، وأنتم يومئذ أذلة، يعني: قليلون، في غير مَنَعة[٦] من

(٤) البقرة: ٥٢.

(٥) آل عمران: ١٢٣.

(٦) يُقال: هو في منعة، أي في عز قومه، فلا يقدر عليه من يريده. «المصباح المنير» (٢/٨٩٧)، والمقصود أن المسلمين كانوا قليلين، وليس لهم عشائر تمنعهم وتحميهم وتدافع عنهم.

الناس، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرة عددهم، وقِلّة عددكم، وأنتم اليوم أكثر عددًا منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم، كما نصركم ذلك اليوم: ﴿فاتقوا الله﴾ يقول -تعالى ذكره-: فاتقوا ربكم بطاعته ، واجتناب محارمه :﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: لتشكروه على ما منّ به عليكم، من النصر على أعدائكم، وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحقّ الذي ضلّ عنه مخالفوكم»(1).

ومن الأساليب التي سلكها القرآن في الدعوة إلى الشكر الحثُّ عليه بأسلوب الاستفهام الذي يشعر المرء بأهمية الشكر، وأنه يلزمه أن يأتي به، وإلا فهو مقصّر فيما يجب عليه، تارك ما لا ينبغي تركه، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾(2).

قال الطاهر بن عاشور -رحمه الله-: «ولذلك كان الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ مستعملاً في استبطاء عدم الشكر، ومكني به عن الأمر بالشكر، وكان العدول عن إيلاء (هل) الاستفهامية بجملة فعلية إلى الجملة الاسمية، مع أنّ لـ(هل) مزيد اختصاص بالفعل، فلم يقل: فهل تشكرون؟ وعدل إلى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ . ليدل العدول عن الفعلية إلى الاسمية على ما تقتضيه الاسمية من معنى الثبات والاستمرار، أي: فهل تقرر شكركم وثبت؛ لأنّ تقرر الشكر هو الشأن في مقابلة هذه النعمة نظير قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾(3) في آية تحريم الخمر»(4).

وفي سورة يس قول الله تعالى:

(1) «تفسير الطبري» (4/74).

(2) الأنبياء: 80.

(3) المائدة: 91.

(4) «التحرير والتنوير» (17/122).

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ @ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ @ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾(1)

ففي قوله تعالى -أفلا يشكرون بعد أن ذكر الله عز وجل عباده ببعض نعمه عليهم- دعوة كريمة لطيفة إلى الشكر بأسلوب الاستفهام الدال على الحض على شكر المنعم تبارك وتعالى، ففي هذا الأسلوب الرقيق الدفع بلطف وإثارة النفوس إلى شكر المحسن الكريم.

وقال جلا وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ @ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ @ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾(4)

وقال أبو بكر الجزائري حفظه الله وقوله: " أَوَلَمْ يَرَوْا " أي أعمى أولئك المشركون ولم يروا مظاهر قدرتنا وإحساننا الموجبة لعبادتنا وهي " مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ " يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه والمراد بالأنعام الماشية من إبل وبقر وغنم. وقوله " وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ " أي سخرناها لهم بحيث يركبون، ويحلبون، ويحملون،ويجرون، ويذبحون، ويأكلون. ولولا هذا التسخير لما قدروا عليها أبداً.وقوله:" وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ " المنافع كالصوف والوبر،و الشعر والمشارب جمع مشرب، وهي الألبان في ضروعها، يحلبون منها ويشربون. وقوله " أَفَلَا يَشْكُرُونَ " يوبخهم على أكل النعم والاستمتاع بها وعدم الشكر عليها، وشكر الله عليها هو الإيمان به، وتوحيده في عبادته(2).

هذا وقد جاءت الدعوة إلى الشكر في القرآن بأسلوب الترجي الذي تدل عليه كلمة (لعل)،وذلك في عدة مواضع من كتاب الله تعالى، وهي

(1) يس (33-35) ، يس (71-73)

(2) بس التفاسير (4/391)

ذلك حقًا لمن النعم العظيمة، والمنن الجليلة التي توجب على العباد شكر ربهم عليها.

وقال الله – عزّ وجلّ –: ﴿ووَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (١).

وفي هذه الآية الكريمة تنبيهٌ على ما أنعم الله به على عباده من منحهم والِدَيْن كانوا سببًا لوجودهم، ووضع في قلوبهم محبة أولادهم، والعطف والحُنو عليهم ولذا قاموا برعاية أولادهم حتى كبروا واستقلّوا بأنفسهم.

ومن أساليب القرآن في الدعوة إلى الشكر التنبيه على أن فائدة شكر العبد تعود عليه، وهذا أسلوب يدفع العبد إلى الشكر ويسوقه إليه سوقًا، قال الله –جلّت قدرته حكاية عن سليمانَ عليه السلام–: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٢).

قال ابن جرير –رحمه الله–:

«يقول: ومن شكر نعمة الله عليه، وفضله عليه، فإنما يشكر طلب نفع نفسه؛ لأنه ليس ينفع بذلك غير نفسه؛ لأنه لا حاجة لله إلى أحد من خلقه، وإنما دعاهم إلى شكره، تعريضًا منه لهم للنفع، لا لاجتلاب منه بشكرهم إياه نفعًا إلى نفسه، ولا دَفْعَ ضُرٍّ عنها: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

يقول: ومَنْ كفر نعمه وإحسانه إليه، وفضله عليه، لنفسه ظلم، وحظَّها بَخَس، والله غني عن شكره، لا حاجة به إليه، لا يضره كفر من كفر به من خلقه، كريم، ومِنْ كرمه إفضاله على من يكفر نعمه، ويجعلها وُصْلة يتوصل بها إلى معاصيه» (٣).

(١) لقمان: ١٤.

(٢) النمل: ٤٠.

(٣) «تفسير الطبري» (١٦٥/١٩).

وفي هذه الآية الكريمة دعوة العبد إلى تذكر نعم الله –عز وجل– عليه، وتنبيه إلى ملاحظة ذلك، وعدم الغفلة عن تلك النعم، ليقوم بشكر ربه –جل وعلا– عليها.

ومما يلاحظ في القرآن الكريم كثرة تنوع الأساليب الداعية إلى الشكر، والمحرِّضة عليه، ومن ذلك ما في كتاب الله –عز وجل– من عرض النعم في عبارات هي الغاية في البلاغة والبيان، وفي أساليب هي الغاية في الحسن والجمال، وينظر ما ورد من ذلك في سور: الرعد، والحجر، والنحل مثلًا.

****

المطلب السادس
في مدح الشاكرين

لما كان الشكر من أعظم الصفات الحميدة، فإن صاحبه يستحق أن يُحمَدَ عليه، ويُنوَّه بشأنه اعترافًا بجميل عمله، وليكون ذلك داعيًا إلى أن يشكر غيره كما شكر، قال الله –جل وعلا–: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (١). وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

يلاحظ في هاتين الآيتين أنه لم يوصف أحدٌ من الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم بوصف الشكر سوى إبراهيم ونوح عليهما السلام، ولعل ذلك –والعلم عند الله تعالى–؛ لأن نوحًا هو أول الرسل، وإبراهيم ختمت النبوة بذريته، فكان ختم النبوة مرتبطًا

(١) الإسراء: ٣.

(٢) النحل: ١٢٠، ١٢١.

به: ولذلك والله أعلم -قُرنا ببعض في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾(١) فإذا كان الأول من المرسلين والآخر اعتبارًا متصفين بهذه الصفة العظيمة، فإنّ من بينهما من الأنبياء والرسل كذلك دون ريب. ولعل وصف نوح -عليه السلام- بكلمة: ﴿شَكُورًا﴾ لأنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فهو بذلك كان طويل البقاء في دعوة قومه. ولذلك كان شكره شكرًا أكثر من شكر غيره لطول بقائه ومداومته هذه المدة على طاعة ربه وعبادته وشكره.

هذا وقد قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «وقد ورد في الحديث. وفي الأثر عن السلف: أن نوحًا -عليه السلام- كان يحمد الله على طعامه، وشرابه ولباسه وشأنه كله فلهذا يسمى عبدًا شكورًا»(٢).

وهو كذلك فقد كان نوحًا -عليه السلام- يشكر الله على ذلك، وكذلك سائر الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- لا يُظَنّ فيهم غير ذلك. ولذلك وُصف إبراهيم -عليه السلام- بقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ وإنما الفرق بين نوح -عليه السلام- وغيره طول المدة التي كان يشكر ربه -عز وجل- فيها، ولذلك خُصّ بوصف الشكور. والله أعلم.

****

(١) الأنعام:٨٤.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/٤٣).

المطلب السابع

قلة الشاكرين

ليس الشكر بأمر هيّن، فإنّه يحتاج إلى رغبة صادقة، وعزيمة قوية، ونفس راغبة، فيما عند الله -عز وجل- من الأجر والثواب، ولذا قلّ الشاكرون. وعزّ وجودُهم في الخلق، عرف ذلك عدو الله إبليس -عليه لعائن الله-. ولذا حكى القرآن الكريم عنه أنه قال: ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(١).

وقال الله -عز وجل- في بيان هذه الحقيقة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾(٣).

وقد صرّح القرآن الكريم بقلة الشاكرين، يقول الله -عز وجل-: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(٤).

الشكور: هو المجتهد في عبادة ربه، الملازم لها، الذي لا يفتر عن شكر ربه وحمده، فشكره كثير وهو مداوم عليه.

روت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فقالت: «كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا صلّى قام حتى تفطّر رجلاه(٥).

قالت عائشة: «يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة أفلا أكون عبدًا شكورًا»(٦). يعني بذلك -فداه أبي وأمي

(١) الأعراف:١٧.

(٢) البقرة:٢٤٣.

(٣) النمل:٧٣، وتنظر الآيات ٣٨ من سورة يوسف، و٦٠ من سورة يونس، و٦١ من سورة غافر.

(٤) سبأ:١٣.

(٥) أي: تتشقق من طول قيامه صلى الله عليه وسلم في التهجد.

(٦) رواه البخاري (٢/٥٠)، ومسلم (٨/١٤١، ١٤٢) واللفظ له.

ونفسي- كيف يغفر الله -عز وجل- له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلا يشكره على هذه النعمة الجليلة، هذا لا يكون أبدًا، وليس من خُلقه -صلوات الله وسلامه عليه-(1)، ألا فلتقتد أمة محمد صلى الله عليه وسلم بنبيها في شكر الله -عز وجل- والمداومة على ذلك، والحرص عليه في كل زمان ومكان.

ومما يجدر التنبيه عليه أنه لا يكون عبد متصفًا بوصف الشكور إلا وكان متصفًا بوصف الصبار، ويدل لذلك قول تعالى: ﴿ ژه وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(2). وقوله -عز وجل-: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(3). وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۞ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(4).

ولعل السر في ذلك هو أن من اتصف بوصف الشكور، فقد وصل إلى أعلى المقامات، وصاحب هذا المقام لابد وأن يكون قد بلغ الغاية في كل شيء، ومن ذلك قوة صبره وتحمله، وجميل صبره، وحسن ضبطه لنفسه، وحملها على ما تكرهه مادام في ذلك مرضاة ربه.

---

(1) ومن هذا الباب استغفاره صلى الله عليه وسلم واستكثاره منه، فقد روى أبو هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والله إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة». رواه البخاري (٦٧/٨) فهو -صلوات الله وسلامه عليه- غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكن يكثر من الاستغفار شكرًا لربه أن غفر له، وهو أيضًا لكمال عبوديته يشعر بتقصيره في جانب ربه ومولاه، وأنه لم يؤدِّ كل حق ربه عليه، فلا يزال يطلب عفو الله -عز وجل- عنه.

(2) إبراهيم: ٥.

(3) لقمان: ٣١.

(4) الشورى: ٣٢، ٣٣. وتنظر: سورة سبأ: ١٩.

المطلب الثامن
عدم انتظار شكر المحسن إليه

المؤمن مجبول على الإحسان إلى خلق الله -عز وجل-، وتقديم ما يحتاجون إليه إذا كان يملك ذلك، وإنه ليتقدم ببره وإحسانه يبتغي بذلك مرضاة ربه، راجيًا ثوابه وجزاءه الدائم الذي لا ينقطع، ولا يفعل ذلك رجاء انتفاعه بمن أحسن إليه، ولو كان ذلك بكلمة شكر، ودعاء يناله، قال الله -عز وجل- حكاية عن عباده الأبرار: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾(1).

قال ابن كثير -رحمه الله-: أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أن تشكرونا عند الناس. قال مجاهد وسعيد بن جبير: «أما والله ما قالوه بألسنتهم؛ ولكن علم الله به من قلوبهم. فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب»(2).

ويلاحظ أن تفضل المؤمنين يشمل إخوانهم في الإيمان وغيرهم، وإلى هذا أشار قوله: ﴿ وَأَسِيرًا ﴾ فإن الأسير يكون من أهل الكفر الذين حاربوا الله ورسوله فقبض على بعضهم وهو حي -وهو الأسير- فإنه يطعم ويسقى ويحسن إليه، ولا يترك حتى يموت جوعًا، بل يعطى ما يحتاج إليه تقربًا إلى الله -عز وجل-، وابتغاء وجهه -جل وعلا-.

---

(1) الإنسان: ٨، ٩.

(2) «تفسير ابن كثير» (٤٥٥/٤).

المبحث الثاني

أسباب الشكر

المطلب الأول: العبدُ يُنعَم عليه ليشكر

العباد يُنعِم عليهم ربهم ليشكروه على إنعامه، ويقوموا بواجبه لكي يرضى عنهم، فيظفروا بأعظم الجوائز التي أعدّها لعباده الشاكرين، وهاهو خليل الرحمن إبراهيم -عليه السلام- عندما ترك زوجه هاجر وابنها إسماعيل -عليهما السلام- في ذلك الوادي المقفر الذي لا زرع به ولا ماء، ولا أنيس من البشر، طاعةً لربه -جل وعلا-، يتضرع إلى مولاه يدعوه أن يهيئ لهما من يأتي إليهما لتزول وَحْشَتُهما، وأن يرزقهما من الثمرات ما يكون سببًا لشكرهما، لإنعام ربهما عليهما: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (1).

وفي سورة يس قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ @ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ @ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ (2). إن في قوله: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ دعوة لطيفة من المولى -جل وعلا- لعباده إلى شكره، وإنها لدعوة كريمة بأسلوب رقيق يملأ النفس حياءً أن تستمتع بهذه النعم الكثيرة المتعدِّدة ثم لا تشكر المنعم، ولا تسعى في مرضاته -خاصة وهي تعلم أن هذا الذي تستمتع به ليس من عمل يدها، ولا طاقة لها بإيجاده، ولا غنى لها عنه بحال من الأحوال، كلّ ذلك يدفع النفس المؤمنة إلى شكر ربها، والاجتهاد في طاعته وعبادته.

والآية تحمل في طياتها توبيخ مَنْ لا يشكر الله -عز وجل-، يومئ إلى ذلك أسلوب الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ (1) أتتقلب عبد الله في نعم ربك ليل ونهار فتترك شكره، أفلا يدعوك ما أنت فيه من إفضال الله وإحسانه إليك إلى شكره والاجتهاد في طاعته وعبادته.

المطلب الثاني

تبيين الآيات من أجلَ النعم

من أعظم ما أنعم الله -عز وجل- به على خلقه أن أرسل إليهم رسله ليدلّوهم على الطرق الموصلة إلى رضوانه -جل وعلا-، وأنزل مع الرسل كتبه لتبين لهم السبل التي يسعدون بها في دنياهم وأخراهم، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (2).

قال ابن جرير -رحمه الله-: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ كما بيّن لكم كفارة أيمانكم، كذلك يبيّن الله جميع آياته، يعني: أعلام دينه، فيوضحها لكم، لئلا يقول المضيع المفرط فيما ألزمه الله: لم أعلم حكم الله في ذلك ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ يقول: لتشكروا الله على هدايته إياكم، وتوفيقه لكم» (3).

---

(1) إبراهيم:37.

(2) يس الآيات (33-35).

(1) يس:35.

(2) المائدة:89.

(3) «تفسير الطبري» (31/7).

هذا، وإن إنزال هذا القرآن العظيم لهو من أجلّ النعم التي ينبغي على الأمة الإسلامية أن يشكروا ربهم عليها، فيُعْنَوْا بتلاوته، ويجتهدوا في تدبره، ويبذلوا قصارى جهدهم في العمل به، والدعوة إليه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (1).

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ به، ﴿ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ على مقتضاه ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أي: يوم القيامة»(2).

وهكذا فإن جميع الكتب التي أوحاها الله -عز وجل- إلى رسله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، وبيّن لهم فيها شرائعه، وفصّل لهم فيها الأحكام، إنزال تلك الكتب، وهذا البيان فيها من النعم التي تستوجب شكر المولى -جل وعلا- عليها.

قال -عز وجل-: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (3). فإنزال الكتب نعمة جليلة على الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-؛ لأنهم خصوا بذلك، ونعمة عظيمة على أقوامهم لما فيها من بيان السبل الموصلة إلى -رضوان الله تبارك وتعالى-.

****

(1) الإسراء: 9.

(2) «تفسير ابن كثير» (5/45).

(3) الأعراف: 144.

المطلب الثالث

السمع والإبصار والأفئدة من النعم

خلق الله -عز وجل- الإنسان، ووهبه من الآلات والأعضاء ما يتمكن به من الانتفاع بحياته، والعيش فيها بـ□حة وهناء.

لقد منح الله عباده الآذان لينتفعوا بها في سماع ما يحتاجون إليه، والعيون ليبصروا به طرقهم وما ينتفعون به، ويروا بها ما حولهم من الآيات الباهرة الدالة على عظيم قدرة خالقهم، وجليل حكمته، ومُنحوا الأفئدة ليفكروا بها، ويتمكنوا من تدبير أمور معاشهم ومعادهم.

أرأيت لو أنّ الخلق وجدوا بدون سمع، أو كانوا فاقدي الأبصار، أو لم تكن لهم؛ قلوبٌ يعقلون بها كيف تكون حياتهم؟ وهل يمكن أن يعيشوا بغير ذلك؟ قال الله -عز وجل- مذكّرًا خلقه بهذه النعم الجليلة: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ (1).

إن الإنسان بغير هذه الآلات لن يتمكن من شيء من العلم إذ هي المدارك التي يحصل بها العلم.

قال ابن جرير -رحمه الله-: «يقول -تعالى ذكره-: والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئًا ولا تعلمون، فرزقكم عقولًا تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشر، وبصّركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص، فتتعارفون بها، وتميزون بها بعضًا من بعض ﴿ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها،

(1) النحل: 78.

وتفكرون فتفقهون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

يقول: فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليهم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليهم من نعمة شريك»[2].

ومن الآيات التي أشارت إلى هذه النعم، قوله -جلّ ذكره-: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾[4]

ويلحظ قارئ القرآن غالباً، أنه ما اجتمع ذكر السمع والأبصار في آية إلا قدّم ذكر السمع على الأبصار. ولعل ذلك -والعلم عند الله تعالى-؛ لأن السمع أكثر أهمية للإنسان من البصر، ذلك أن الإنسان الأعمى أكثر وعيًا وإدراكًا من الإنسان الأصم، وذلك واقع ملموس يدرك بيسر وسهولة، يضاف إلى ذلك ما يذكره الأطباء من دقيق آلات السمع، وعظيم عملها في إيصال الصوت إلى المخ[5]، وفي تفسير أبي السعود[6]: «وتقديم السمع على البصر لما أنه طريق الوحي، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر، وإفراده باعتبار كونه مصدرًا في الأصل». فلله الحمد والمنة على ما وهب من سمع وأبصار، وما منح من عقول.

(١) النحل: ٧٨.
(٢) «تفسير الطبري» (١٥٢/٤).
(٣) المؤمنون: ٧٨.
(٤) الملك: ٢٣.

(٥) «تفسير الطبري» (١٥٢/٤).
(٦) ومن المعلوم أن الجنين في بطن أمه يسمع الأصوات لكنه لا يبصر، وكذلك النائم لا يبصر لأن عينيه مغمضتان، ولكنه يسمع الأصوات على اختلاف بين الناس في ذلك.

المطلب الرابع

الماء الحلو من النعم

من النعم العظيمة التي تفضل الله -عز وجل- بها فمنحها عباده إنشاء الماء الحلو، ذلك الماء الذي لا قوام للحياة، ولا بقاء للعيش بغيره، قال الله -جل وعلا-: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾[1].

قال سيد قطب -رحمه الله-: «وهذا الماء أصل الحياة، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله، ما دور الإنسان فيه؟ دوره أن يشربه؛ أما الذي أنشأه من عناصره؛ وأما الذي أنزله من سحائبه، فهو الله سبحانه، وهو الذي قدر أن يكون عذبًا فكان: ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ مالحًا لا يستساغ، ولا ينشئ حياة، فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان؟!

والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحائب، في صورته المباشرة مادة حياتهم، وموضع احتفالهم، والحديث يهزّ نفوسهم، وقد خلدته قصائدهم وأشعارهم، ولم تنقص قيمة الماء بتقدم الإنسان الحضاري، بل لعلها تضاعفت، والذين يشتغلون بالعلم، ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشدُّ شعورًا بقيمة هذا الحدث من سواهم، فهو مادة اهتمام للبدائي في الصحراء، وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء»[2].

إن الماء هو أصل الحياة، ومنه خلق الله كلَّ شيءٍ حيّ، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3]

إنّ الخلق لازالوا، ولن يزالوا

(١) الواقعة: ٦٨-٧٠.

(٢) «في ظلال القرآن» (٧٠٤/٧).
(٣) الأنبياء: ٣٠.

محتاجين إلى إنزال الله -عز وجل- لهم الأمطار من السماء، وإذا انقطع المطر عنهم مدة ساءت أحوالهم، واضطربت معايشهم، وشعروا بعظم حاجتهم إلى هذه النعمة التي لا حياة لهم بسواها، أفلا يرجع الخلق إلى ربهم فيعبدوه، ويخلصوا له الطاعة والعبادة، شكرًا على جميل إنعامه وعظيم إحسانه.

****

المطلب الخامس

تسخير السفن لخدمة الإنسان

مساحة المياه أكبر من مساحة اليابسة، ومن الحكم في ذلك أنَّ مياه البحار تحافظ على نقاء الجو، وصفاء الهواء، وتحفظ الأرض من التلوث، ومن السنن التي أنعم الله -عز وجل- بها على عباده أن سخر البحار لسير السفن، وتستوعب من الأثقال ما لا يمكن للمراكب الجوية ولا البرية حمله، إنها تحمل آلاف الأطنان من البضائع التي يحتاجها الناس، ولولا تسخير الله -عز وجل- للبحر لتعطل كثير من مصالح الناس، قال الله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(1).

قال ابن كثير -رحمه الله-: «يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم

(١) النحل: ١٤.

الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها، حيّها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد.

واستخراجهم من قراره حِلْيَةً يلبسوها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تَمْخره أي تشقُّه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح. وقيل: تمخره(1) بجؤجئها -وهو صدرها المسنم- الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك إرثًا عن أبيهم نوح -عليه السلام-، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعلم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه، قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هنا وما هنا إلى ما هناك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(2). أي: نعمه وإحسانه»(3).

فكم من نعم الله -عز وجل- في هذه البحار، وكم من نعم له سبحانه في هذه السفن التي لم يستطع الناس الاستغناء عنها رغم تقدمهم العلمي، ورقيهم الحضاري، بل ازدادت حاجتهم إليها، وكثر استخدامهم لها.

****

(١) الضمير يعود على السفن.

(٢) النحل: ١٤.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/٥٦٤).

المطلب السادس

الليل والنهار من النعم

الليل والنهار، وتعاقبهما من النعم الجليلة التي أنعم بها المولى -جل وعلا- على عباده، وهما ظرفان لأعمال الناس، فالليل بظلامه وقت سكن الناس وراحتهم، ولن يجد الناس وقتًا ترتاح فيه أجسامهم، وتسكن فيها نفوسهم كالليل، قال الله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١). وقال -عز وجل-: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٢).

والليل هو الزمن الذي يتشوق له العباد، وينتظره الصالحون ليقفوا بين يدي ربهم ساجدين راكعين، يناجونه ويدعونه، ويسكبون العبرات في صلاتهم وسجودهم، قال تعالى عن عباده المتقين: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣)

وقال تعالى -في وصف هؤلاء المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ (٤)

وقال -عز وجل-: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (٥).

والنهار يطلب فيه الناس فضل ربهم، ويسعون في البحث عن أرزاقهم، ففيه يزرع الزارع، ويصنع الصانع، ويسعى كل ذي مهنة في مهنته، قال -جل وعلا-: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (٧).

وفي هاتين الآيتين إشارة إلى أن وقت العمل والكسب هو النهار، ووقت النوم والراحة هو الليل، وأنه

---

(١) القصص: ٧٣.

(٢) الأنعام: ٩٦.

(٣) الذاريات: ١٧، ١٨.

(٤) الفرقان: ٦٤.

(٥) الفرقان: ٦٢.

(٦) الروم: ٢٣.

(٧) النبأ: ١٠، ١١.

ينبغي على الإنسان أن يسير على هذه السنة الربانية، وإلا اختلت أحواله، وتضرر من جراء مخالفته لسنن الله -عز وجل-، وقد عُلم أن نوم ساعة في الليل لا يعاد له نوم ثلاث ساعات في النهار، فهل يعقل هذا ويعيه أولئك الذي جعلوا ليلهم نهارًا، ونهارهم ليلًا؟!

هذا وإنَّ الناس لفي أشد الحاجة إلى الليل والنهار معًا، ولذا أشار القرآن الكريم إلى اختلال أحوال الناس، وعدم قدرتهم على تحمل حياة لا نهار فيها، وحياة لا ليل فيها، قال الله -جل وعلا-: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا (١) إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢).

****

المطلب السابع

الثمرات من النعم

خلق الله -عز وجل- الإنسان على هذه الأرض، وهيأ له هذه الأرض لتنبت الأشجار بعد نزول الأمطار، وجعل هذه الأشجار تحمل أصنافًا كثيرة من الثمار، كل صنف يختلف عن الآخر، لونًا وحجمًا وطعمًا ورائحة وفائدة.

ويحتاج الناس للثمار لبناء أجسادهم، وتقوية أبدانهم، ومنحها مقاومة لمختلف الأمراض، ويضاف إلى ذلك ما يناله الإنسان عند تناوله الثمر من التلذذ والمتعة.

أليس عجيبًا أن تكون التربة واحدة، والماء شيء واحد، ومع ذلك تتنوع الثمرات، وتختلف أشكالها وأحجامها، وطعومها وألوانها، إن ذلك لدليل على كمال قدرة الخالق -جل وعلا-.

في بيان إنعام الله -عز وجل-

---

(١) السرمد: الدائم الذي لا ينقطع.

(٢) القصص: ٧١، ٧٢.

يقول تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ @ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ @ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾(١).

قال أبو بكر الجزائري حفظه الله: "لما تقدم في الآيات قبل هذه تقدير البعث والجزاء في قوله ﴿ وإن كل لما جمعنا محضرون ﴾(٢) ذكر هنا الدليل العقلي على صحة إمكان البعث فقال ﴿ وآية لهم ﴾ أي على صحة البعث الأرض الميتة التي أصابها المحل(٣) لا نبات فيها، ولا زرع أحييناها بالمطر فأنبتت من كل زوج بهيج، فهذه آية أي علامة كبرى وحجة واضحة على إمكان البعث ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا ﴾ أي حب البر (ونحو) فمنه أي من ذلك يأكلون الخبز وقوله: ﴿ وجعلنا فيها ﴾ أي في الأرض الميتة ﴿ جنات ﴾ أي البساتين ﴿ من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي: عيون الماء، هذه مظاهر القدرة والعلم الإلهي، وكلها تشهد بصحة البعث وإمكانه، وأن الله قادر عليه وعلى مثله. وقوله تعالى ﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ أي من الثمر المذكور من النخل والعنب وغيره. وقوله ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي: لم تخلقه ولم تكونه أيديهم، بل يد الله التي خلقته ﴿ أفلا يشكرون ﴾ يوبخهم على عدم شكره تعالى على ما أنعمه به عليهم من نعمة الغذاء،(٤) ومع التوبيخ الدعوة إلى الشكر بهذا الأسلوب المحرض على التنكر الداعي إليه. وقال -عز وجل-: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ @ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ

(١) يس: ٣٣-٣٥.

(٢) يس ٣٢.

(٣) المحل: الجدب والقحط.

(٤) أيسر التفاسير (٤/٣٧٥، ٣٧٦).

وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

قال أبو حيان -رحمه الله- عند تفسيره للآية الثانية: «وخصّ الأربعة بالذكر؛ لأنها أشرف ما ينبت، وأجمعه للمنافع، وبدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم، ثم بالزيتون لما فيه من فائدة الاستصباح(٢) بدهنه، وهي ضرورية مع منفعة أكله، والائتدام به وبدهنه، والإطلاء(٣) بدهنه، ثم بالنخل؛ لأن ثمرته من أطيب الفواكه، وقوت في بعض البلاد، ثم الأعناب؛ لأنها فاكهة محضة.

ثم قال: ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أتى بلفظ: ﴿ من ﴾ للتبعيض؛ لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أُنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة... وختم ذلك بقوله: ﴿ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤). لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل، واستعمال فكر، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض، ومرّ عليها مقدار من الزمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفع به، فينشق أعلاها، فيصعد منه شجرة على الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى، وتخرج الأوراق والأزهار والأكمام(٥) والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع، وذلك بتقدير قادر مختار هو الله تعالى»(٦).

ولعلم خليل الله إبراهيم -عليه السلام- بحاجة أهله وبنيه إلى هذه

(١) النحل: ١٠، ١١.

(٢) الاستصباح: الاستضاءة بزيت الزيتون ونحوه، ذلك بجعله في المصابيح. ينظر: «المعجم الوسيط» (ص٥٠٥).

(٣) الإطلاء: تدليك البدن استشفاء بالزيت، ولترطيب البشرة.

(٤) النحل: ١١.

(٥) الأكمام: جمع كمّ، وهو وعاء الطلع وغطاء الزهر. ينظر: «المعجم الوسيط» (ص٧٩٩).

(٦) «البحر المحيط» (٥/٤٧٨، ٤٧٩).

الثمرات دعا الله تعالى، كما حكى الله -عز وجل- عنه: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(1).

(1) إبراهيم: ٣٧.

المطلب الثامن
تسخير الأنعام

لا يستغني الإنسان عن الأنعام(2) فهو يحتاج إليها في طعامه؛ إذ يأكل لحومها، وفي شرابه؛ إذ يشرب ألبانها، وفي لباسه وسكنه؛ إذ يستخدم وبرها وصوفها وشعرها لصنع لباسه الذي يلبسه، وخيامه التي يسكنها، كما يستخدم في ذلك الجلود.

ويحتاج إليها للتنقل من مكان إلى مكان، ويحمل عليها أمتعته وأثقاله، ويستخدمها في حرث أرضه للزراعة، ويستعمل روثها لتسميد أرضه للزراعة إلى غير ذلك من المنافع الكثيرة العظيمة.

قال الله -في بيان منافع الأنعام-: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾(3). وقال -جل وعلا-: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾(1).

(2) الأنعام: هذا اللفظ يشمل: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز.

(3) النحل: ٦٦.

وقال -عز وجل-: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(2).

قال ابن كثير -رحمه الله-: «يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج(3)، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من: أصوافها، وأوبارها، وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ وهو وقت رجوعها عشيًا من المرعى؛ فإنها تكون أمده خواصر(4) وأعظمه ضروعًا(5) وأعلاه أسنمة: ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾(6). أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها: ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾(7). وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب ... قال ابن عباس: ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أي: ثياب ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة»(8).

(1) النحل: ٨٠.

(2) النحل: ٥-٧.

(3) في الآيتين رقم (١٤٣، ١٤٤).

(4) أي: قد امتلأت بطونها من الطعام.

(5) أي: امتلأت ضروعها من الألبان.

(6) النحل: ٦.

(7) النحل: ٧.

(8) «تفسير ابن كثير» (٥٦٢/٢).

المطلب التاسع

الرزق والنصر

لا غناء للإنسان عن رزق ربه له، كما لا غناء له عن نصر الله -عز وجل-، فهو يحتاج إلى الرزق؛ ليتمكن من العيش على هذه الأرض، ويحتاج إلى النصر ليأمن على دينه ونفسه، ويقهر عدوه ويكبته عنه، فلا يعتدى عليه، ولا يتطاول، قال الله -جل ذكره-: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

قال ابن كثير -رحمه الله-: «ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين، فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم»[2].

ومن الآيات التي يمتن الله -عز وجل- على عباده برزقه لهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]. فالله -عز وجل- هو وحده المتفرد برزق خلقه، كما أنه -جل وعلا- هو المتفرد بخلقهم وإيجادهم لا إله غيره، ولا رب سواه.

وهو -جل وعلا- الذي ينصر عباده المؤمنين، ويؤيدهم على أعدائهم الكافرين، لا ناصر لهم غيره، ولا مؤيد

(1) الأنفال:26.

(2) «تفسير ابن كثير» (2/300).

(3) الإسراء:70.

(4) النمل:64.

لهم سواه، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. وقال -جل وعلا-: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[2].

أسأل الله -عز وجل- أن يجمع كلمة المسلمين، وأن يوحد صفوفهم، وأن يؤلف قلوبهم، وأن ينصرنا على القوم الكافرين، وأن يرد كيدهم في نحورهم، وأن يجعل الدوائر عليهم؛ كما أسأله - جلت قدرته - أن يرزقنا رزقنا حلالاً طيباً، وأن يجعل ما رزقنا عوناً على طاعته وعبادته، ومتاعاً إلى حين. إنه سميع مجيب.

(1) آل عمران:160.

(2) آل عمران:126.

المبحث الثالث

مظاهر الشكر

المطلب الأول: العمل والعبادة شكر

يظن بعض الناس أن مجرد قولهم: «الحمد لله» يكفي في شكر الله -عز وجل-، بل قد يقع في وهمه أن قوله هذه الكلمة العظيمة هو الشكر، ولا شيء غيره.

والحقيقة أن الشكر مبني على ثلاثة أركان لابد منها جميعها لتحقيق شكر المنعم -جل وعلا-.

قال ابن القيم -رحمه الله- في بيان هذه الأركان: «الاعتراف بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها؛ فإذا فعل [العبد] ذلك فقد شكرها، مع تقصيره في شكرها»[3].

فالشكر لابد له من عمل يبين صدق صاحبه فيه، قال الله تعالى:

(3) «صحيح الوابل الصيب» (ص11).

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١) ويشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ (٢).

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ (٣). إن هذا السعي مشكور من قبل الله عز وجل الشكور، علماً بأن توفيق العبد لهذا السعي نعمة أخرى يستحق المولى جل وعلا شكراً عليها، ولهذا فلن يستطيع العبد أن يشكر به عز وجل حق شكره، وإنما يسدد العبد ويقارب والله شكور حليم.

ومما يدل على أن العبادة إنما هي شكر للمولى -جل وعلا-، قوله -جل ذكره-: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٤).

(١) سبأ:١٣.
(٢) الإسراء:١٩.
(٣) الإنسان:٢٢.
(٤) الزمر:٦٦.

ومن شكر النعمة التحدث بها وإظهارها، وعدم كتمانها وإنكارها، يقول -جل وعلا-: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٥). وهذا ما دلّ عليه ما رواه أبو رجاء العطاردي -رحمه الله-، قال: خرج علينا عمران بن حصين، وعليه مطرف من خزّ(٦) لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أنعم الله -عز وجل- عليه نعمة؛ فإن الله -عز وجل- يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه»(٧).

فينبغي على العبد أن يظهر نعمة ربه عليه، وأن يستخدم ما أنعم الله عليه، فلا يبخل على نفسه ولا أهله؛

(٥) الضحى:١١.
(٦) المطرف: ثوب من خزّ له أعلام. والخز: نوع من القماش يصنع من صوف وإبريسم.
(٧) رواه أحمد (٤٣٨/٤)، وروي معناه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- (٣١١/٢)، وروي معناه أيضًا أبو داود (٣٧٣/٢)، والترمذي (١٢٣/٥، ١٢٤) وقال: «هذا حديث حسن».

فإن هذا من شكر ربه، وهو سبب بقاء النعمة وعدم زوالها، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (١).

قال ابن كثير -رحمه الله-: «وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم، وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ... وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النعمة وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٢). وذلك بسلبها منهم، وعقابهم إياهم على كفرها»(٣).

(١) إبراهيم:٧.
(٢) إبراهيم:٧.
(٣) «تفسير ابن كثير» (٥٤٣/٢).

المطلب الثاني
التقوى شكر

أعظم وأجلُّ ما يُشكر الله -عز وجل- به هو تقواه، والتقوى هي مخافة الله تعالى، تلك المخافة التي تبعث العبد إلى أن يسارع إلى فعل ما أمره الله به، وترك ما نهاه ربه -عز وجل- عنه، قال الله -جل ذكره-: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤).

والتقوى هي أعظم ما يشكر المولى -جل وعلا- بها، ولذا يكافأ صاحبها بأنواع من الهبات الربانية، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٥).

ومن ثمرات التقوى أن يهب الله عبده المتقي نورًا في قلبه يميز به بين

(٤) آل عمران:١٢٣.
(٥) الأنفال:٢٩.

الحق والباطل، والخير والشر، ويكون له نجاة ومخرجًا من الشهوات والشبهات، بالإضافة إلى ما يكفره الله من ذنوب عبده المتقي، ويغفر له من سيئاته.

ومن ذلك أن المتقي يجعل الله –عز وجل– له مخرجًا يخلص به من كل كرب وشدة في الدنيا والآخرة، ويرزقه من حيث لا يدري، قال –جل وعلا–: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1].

ويسهل الله –عز وجل– للمتقي أموره، وييسرها عليه، ويجعل له فرجًا قريبًا، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[2].

ومن أراد أن يسهل الله له سبل العلم، ويرزقه علمًا صحيحًا نافعًا فعليه بالتقوى كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3].

قال ابن كثير –رحمه الله–:

«وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره، واتركوا زجره، ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[4]. وكقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾[5].

قال ابن كثير –رحمه الله– : ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة»[6].

فهذا النور الذي هو من ثمرات التقوى علم ينتفع به العبد، يكشف له ما يشكل عليه، ويدله على السبيل الموصل إلى رضوان ربه تبارك وتعالى.

---

(١) الطلاق:٢، ٣.

(٢) الطلاق:٤.

(٣) البقرة:٢٨٢.

(٤) الأنفال:٢٩.

(٥) الحديد:٢٨ وينظر: «تفسير ابن كثير» (٥٠٠/١).

(٦) «تفسير ابن كثير» (٥٧/٨).

المطلب الثالث
التطوع من الشكر

التطوع هو: «أن يفعل العبد العبادة؛ يقصد بها وجه الله تعالى من غير أن تكون واجبة عليه، فهو قيام العبد بطاعة لم تلزمه».

وتطوع العبد دليل إيمانه، وحبه للخير، ورغبته في الأجر والثواب، ورجائه لربه –جل علا–، قال الله –جل ذكره–: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

والتطوع أنواع شتى، فهناك تطوع في الصلاة، ويكون بأداء السنن الرواتب والنوافل، وأفضل التطوع في الصلاة وأكبره قيام الليل، والتهجد فيه، ويتبع ذلك السنن المؤكدة كالوتر وركعتي الفجر.

وهناك التطوع بالصيام، وأفضل صيام التطوع صيام داود –عليه السلام–، وهو صوم يوم وإفطار يوم، ومن صيام التطوع صيام يوم عرفة، وصيام عاشوراء[2]، وصيام الأيام البيض[3]، وصيام الاثنين والخميس، وصيام ستة أيام من شهر شوال.

وهناك التطوع بالحج والعمرة، والتطوع بالصدقات، والإحسان على اليتامى والفقراء والمحتاجين.

وهناك التطوع بمعاونة من يحتاج إلى معونة من مرضى ومعوقين، وكبار في السن إلى غير ذلك من أبواب الخير التي يصعب حصرها.

وقد يسّر الله –عز وجل– في وقتنا هذا سبل التطوع في مجال الصدقة والإحسان، وإغاثة الملهوفين والمكروبين، وذلك لقيام هيئات وجمعيات في بلاد

---

(١) البقرة:١٥٨.

(٢) يستحب صيام التاسع والعاشر؛ لقول الرسول ج: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع». رواه مسلم (١٥١/٣).

(٣) الأيام البيض، هي: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من الشهر.

المسلمين تساعد في إيصال المعونات إلى محتاجيها، ويجد المتطوعون من يعينهم على القيام بما يريدون من أوجه الخير، فجزى الله القائمين عليها أعظم الجزاء، ووفق أصحاب اليسار من المسلمين للوقوف معهم، وإمدادهم بما يحتاجون، إنه سميع مجيب.

المطلب الرابع
التكبير من الشكر

التكبير: «ذكر الله -عز وجل- وتعظيمه، بقول: الله أكبر».

وهذه الكلمة الجليلة شعار من شعارات أهل الإسلام، فهي أول كلمات الأذان، وهي أول كلمة ينبغي أن تطرق آذان المولود، هي الذكر الذي يشدو به، ويكثر منه المسلمون في عيدي الفطر والنحر، وفي أيام التشريق، وحسبك أنها الكلمة التي تستفتح بها الصلاة، ولا تصح صلاة لم تستفتح بهذه الكلمة التي تدل على تعظيم المولى -جل وعلا-، واليقين بأنه -جل وعز- أكبر من كل شيء، وأنه قهر كل شيء، فكل شيء تحت تصرفه، ولا يمكن أن يخرج عن قدرته بحال من الأحوال؛ بل كل شيء محتاج إليه ولا يستغني عن ربه أبدًا.

فلا غرابة إذن أن يكون التكبير مما أشار القرآن الكريم على أنه يجب أن

يشكر الله -عز وجل- به كما يشكر بالصيام، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (1).

قال ابن جرير -رحمه الله-: «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ يعني تعالى ذكره ولتعظموا الله بالذكر بما أنعم عليكم به من الهداية التي خذل عنها غيرهم من أهل الملل الذين كتب عليهم من صوم شهر رمضان مثل الذي كتب عليكم فيه، فضلوا عنه بإضلال الله إياهم، وخصكم بكرامته، فهداكم له، ووفقكم لأداء ما كتب الله عليكم من صومه، وتشكروه على ذلك بالعبادة له؛ والذكر الذي حضّهم الله على تعظيمه به: التكبير يوم الفطر فيما تؤوله جماعة من أهل التأويل»(2).

والتعليل بالتكبير إشارة إلى جميع أنواع الذكر، سواء أكان في الصلاة، أم الحج، في الصباح والمساء، وسواء أكان ذكرًا مطلقًا أم محدودًا بزمان، أو مكان، أو حالة؛ فإن ذلك جميعًا من شكر المولى -جل وعلا-، وهو نوع من تكبير الله عز وجل وتعظيمه وتقديسه. نسأل الله أن يجعلنا من الذاكرين الشاكرين.

---

(1) البقرة: ١٨٥.

(2) «تفسير الطبري» (١٥٧/٢).

المبحث الرابع
من ثمرات الشكر
المطلب الأول: رضا الله عن الشاكرين

من أعظم ثمرات الشكر، وأجلّها رضا الله -عز وجل- عن الشاكرين، يقول الله -جل وعلا-: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾(1).

فالرب -جل وعلا- لكمال رحمته بخلقه لا يرضى كفرهم وعصيانهم مع غناه عنهم، وشدة احتياجهم إليه، فكفر الخلق يعود ضرره عليهم أنفسهم، فليشكروا ربهم بالإيمان به، وبطاعته، واتباع رسله، والله -عز وجل- يرضى شكرهم، فإذا رضي عن شكرهم فقد رضي عنهم.

ورضا الله -عز وجل- هو أقصى ما يتمناه عباده الصالحون، ولهذا سهروا ليلهم، وظمئوا نهارهم، وبذلوا أموالهم ومهجهم في سبيل الله، كل ذلك طلبًا لرضا مولاهم عنهم.

ورضاه -جل وعلا- هو ما بشر به المهاجرين والأنصار وأتباعهم بإحسان رضي الله عنهم، وما بشر به صالحي عباده، قال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(2).

وقال -جل من قائل-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾(3).

(1) الزمر: 7.
(2) التوبة: 100.
(3) البينة: 7، 8.

وقال -جل في علاه-: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(1).

وهذا الجزاء الذي هو رضا الله -عز وجل- عن الصحابة -رضي الله عنهم، ورضاه عن عباده المؤمنين العاملين للصالحات وإدخالهم الجنة يتمتعون فيها بما أعدّ الله -عز وجل- لهم فيها من النعيم المقيم من ثمرات شكرهم لربهم -جل وعلا-.

ومما يثبت أن أفضل وأكبر ما يفوز به أهل الجنة هو رضا الله -عز وجل- عنهم قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(2).

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(3).

(1) المائدة: 119.
(2) التوبة: 72.
(3) البخاري (151/3)، ومسلم (144/8).

المطلب الثاني
حفظ النعم وزيادتها

ينعم الرب -جل وعلا- على عباده نعمًا، فمن يضمن للعبد بقاء هذه النعم، وعدم سلبها؟ وكيف يمكن للعبد أن يزداد من هذا الخير؟ إن العبد ليحصل له ذلك بشكر النعمة؛ إذ الشكر هو الشيء الوحيد الذي يكفل بقاء النعمة وحفظها، وهو الذي به يزيد الله -عز وجل- تلك النعمة ويتمها على عبده.

قال الله -جل وعلا-: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[1].

قال ابن كثير -رحمه الله-: «وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[2]. وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: «لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم منها»[3].

وقال ابن جرير -رحمه الله-: «وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ يقول: لئن شكرتم ربكم بطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم، لأزيدنكم في أياديه عندكم، ونعمه عليكم»[4].

وشكر الإنسان على النعمة دليل على صدق إيمانه، ودليل على أنه عبد يحفظ الجميل، ويحسن الثناء على أهله، وعلى أنه ممن يكافئ على المعروف، وهو شخص كريم النفس، طيب الخلق، غير جحود ولا كفور، ولذا فهو يستحق أن تحفظ عليهم النعم، وأن يزداد منها.

(١) إبراهيم:٧.
(٢) الأعراف:١٦٢.
(٣) «تفسير ابن كثير» (٣٩٨/٤).
(٤) «تفسير الطبري» (١٨٦/١٣).

المطلب الثالث
الشكر سبب الهداية

الشكر سبب لكلّ خير، وهو سبب ثبات العبد على الهداية؛ بل هو سبب من أسباب هداية الله -عز وجل- للعبد، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[1].

قال ابن جرير -رحمه الله-: «يقول الله تعالى: ﴿بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ وهذا منه تعالى إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هدى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه، وهم أغنياء، وتقرير لهم: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرًا لنعمتي، ممن هو لها كافر، فمَنّي على من مننت عليهم منهم بالهداية جزاء شكره إياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني، ولا لفقر الفقير؛ لأنّ الثواب والعقاب لا يستحق أحد إلا جزاء عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره؛ لأن الغنى والفقر، والعجز والقوة، ليس من أفعال خلقي»[2].

وهداية الله -عز وجل- هي مطلب المؤمنين الذين ما فتئوا يسألونها الله -عز وجل- ويلحون في السؤال في كل ركعة من ركعات صلاتهم، وذلك عند ما يتلون فاتحة الكتاب في صلاتهم، وفيها: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[3].

إنهم يتمكنون من هذه الهداية، ويحصلون عليها بشكرهم لربهم -جل وعلا-.

(١) الأنعام:٥٣.
(٢) «تفسير الطبري» (٢٠٧/٧).
(٣) الفاتحة:٥، ٦.

المطلب الرابع
الشكر يمنع العذاب

الشاكر يكون في مأمن من عذاب الله -عز وجل-؛ إذ يحول شكره بينه وبين غضب الرب -جل وعلا-، وهذا ما يدل عليه قوله -جلّت قدرته-: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(١).

قال محمد رشيد رضا -رحمه الله-: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ استفهام إنكاري، بين الله لنا به أنه لا يعذب أحدًا من عباده تشفيًا منه، ولا انتقامًا بالمعنى الذي يفهمه الناس من الانتقام، بحسب استعمالهم إياه فيما بينهم، وإنما ذلك جزاء كفرهم بنعم الله عليهم بالحواس والعقل والوجدان والجوارح باستعمالها في غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها إلى تكميل نفوسهم بالعلوم والفضائل والأعمال النافعة. وكفرهم بالله تعالى باتخاذ شركاء له -وإن سماهم بعضهم وسطاء وشفعاء- فبكفرهم بالله تعالى، وبنعمه عليهم في الآفاق وفي أنفسهم تفسد فطرهم، وتتدنس أرواحهم، فتهبط بهم في دركات الهاوية، ويكونون هم الجانين على أنفسهم، ولو شكروا وآمنوا فطهرت أرواحهم من دنس الشرك والوثنية، وظهرت آثار عقولهم، وسائر قواهم بالأعمال الصالحة المُصلحة لمعاشهم ومعادهم لعرجت بهم تلك الأرواح القدسية إلى المقام الكريم، والرضوان الكبير في دار النعيم، وقدم الشكر هنا على الإيمان؛ لأنّ معرفة النعم، والشكر عليها طريق إلى معرفة المنعم، والإيمان به ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(٢).

يثيب الشاكرين الصالحين المصلحين على حسب علمه بحالهم، لا أنه يعذبهم؛ بل يعطيهم أكثر مما يستحقون على شكرهم وإيمانهم، وهم إنما يحسنون

(١) النساء:١٤٧.

(٢) النساء:١٤٧.

بشكره إلى أنفسهم، وهو غني عنهم، وعن شكرهم وإيمانهم»(١).

وفي قوله -جلّت قدرته-: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ دعوةٌ إلى الشكر وحثٌّ عليه؛ إذ المعنى لا حاجة لله -عز وجل- ولا منفعة له في تعذيبكم وأنتم شاكرون له، مؤمنون به، فاشكروه وآمنوا به لكي تأمنوا عذابه، فإن لم تفعلوا فإنكم مستحقون للعذاب، فاشكروا ربكم درءًا لسخط الله عليكم، ودفعًا لعذاب لا تطيقونه.

المطلب الخامس
الجنة جزاء الشاكرين

الجنة دار الخلود، دار السعادة والمقام، دار الأنس والراحة والطمأنينة، إنها عالم لا آلام فيه، ولا أوجاع، عالم لا أكدار فيه، ولا أقذار، لا يسمع الإنسان فيه إلا ما يسره، ولا يرى فيه إلا ما يحبه، لا حسد ولا أحقاد، لا غلّ فيه ولا عداوة، لا يمكن وصف الجنة بأعظم مما وصفها به العليم الخبير؛ إذ يقول -جل ذكره-: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ

(١) «تفسير المنار» (٥/٣٨٦).

كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾(١).

ولا يجد المرء أبلغ في وصف الجنة مما رواه أبو هريرة –رضي الله عنه–، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله –تبارك وتعالى–: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(٢).

قال أبو هريرة: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(٣)».

هذا النعيم العظيم المقيم هو جزاء الشاكرين، قال الله –جل وعلا–: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾(٤).

فالإيمان والعمل المشروع، والإخلاص فيه، هذه الثلاث هي شروط العمل المقبول المشكور، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾(٥). وقال جل وعلا: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(٦). فالشاكرون هم الفائزون الحاصلون على هذه السعادة الكبرى في جنات النعيم، نسأل الله -عز وجل- بمنّه وكرمه وإحسانه أن يجعلنا منهم، وألّا يؤاخذنا بسيئات أعمالنا، ولا بتقصيرنا، إنه سميع مجيب.

(١) الزخرف:٦٧-٧٣.

(٢) الحديث أخرجه البخاري (١١٥/٦، ١١٦)، ومسلم (١٤١/١) بمعناه.

(٣) السجدة:١٧.

(٤) الإنسان:٢٠-٢٢.

(٥) آل عمران:١٤٥.

(٦) الإسراء: ١٩.

المطلب السادس
في بيان السبب الصارف عن الشكر

نعم الله عز وجل كثيرة، وهي أكثر من أن تعد، وهي متتابعة لا تنقطع عن عباده، وكان ينبغي على العباد أن لا يغفلوا عنها، وأن يقوموا بشكرها إلا أن الجهل والغفلة يحولان بين كثير من الخلق وشكر النعم الكريمة عليها.

قال الغزالي رحمة الله تعالى: "أعلم أنه لم يقصر بالخلق من شكر إلا الجهل والغفلة، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها. ثم أنهم عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عز وجل.

فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة، واستيلاء الشيطان. أما الغفلة عن النعم فلها أسباب. وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدُّون ما يعُم الخلق، ويسلِّم لهم في جميع أحوالهم نعمةً، فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرنا من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً به، فلا يعده نعمة، ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا..."(١)

وهكذا يتبين أن جهل كثير من الناس بنعم الله تعالى التي يتقلبون فيها ليلاً ونهاراً، وتغمرهم من كل جانب، وعدم ملاحظتهم تلك النعم لاشتراك غيرهم معهم فيها، وغفلتهم عن ذلك، وغلبة الأهواء والشهوات كل ذلك من أسباب انصرافهم عن شكر النعم المتفضل عليهم بها. نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من عباده الشاكرين.

(١) إحياء علوم الدين (٢٢٧٥/١٢، ٢٢٧٦).

الخاتمة

لله الحمد والمنة، وله الشكر على ما أولى من النعم، وصلاته وسلامه على خير خلقه، وعلى ىله وصحبه.

وبعد:

فإن شكر الله -عز وجل- هو حقّ الله المنعم -عز وعلا- على خلقه، وقد خلق الله الخلق لذكره وشكره وحسن عبادته، وقد عرفنا في هذا البحث معنى الشكر، وأنه أعظم صفات عباد الله الصالحين، وفي مقدمتهم الأنبياء والمرسلون، وأن المتصفين به قليل من عباد الله، وإنما يشكر العباد ربهم على ما أنعم عليهم، وأحسن إليهم من خلقهم، ورزقهم، وتدبيره لأمور معيشتهم، وكلاءتهم، وإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب على الرسل، وهدايته لهم، ونعم الله -عز وجل- على خلقه لا تحصى، وآلاؤه لا تستقصى.

وشكر الله -عز وجل- يتمثل في طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباعه، وثمرات هذا الشكر كثيرة، أعظمها رضوان الله عز وجل، الذي يُحلّه على الشاكرين، بالإضافة إلى أمنهم من غضبه وعذابه، وفوزهم بدخول الجنة والتمتع في عالم السعادة الذي فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هذا وإن من أهم نتائج هذا البحث أن من أراد شكر ربه -عز وجل- فليتأمل كتاب الله تعالى فإنه قد وجه الأنظار، وخاطب العقول بما يوقفها وينبهها على ما أنعم المولى -جل وعلا- على عباده، وعلى أن نعم المولى -جل وعلا- كثيرة لا يطيق العباد عدها ولا إحصاءها، ولا يستطيعون حصرها ولا استقصاءها.

فله الحمد والشكر على عظيم ما أنعم، وجميل ما أكرم، وكريم ما تلطف به وقدم.

فهرس المصادر

إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي. طبعة دار الشعب.

البحر المحيط: لأبي حيان، مكتبة ومطابع النصر الحديثة.

بصائر ذوي التمييز: للفيروزآبادي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٣٨٥هـ.

التحرير والتنوير: طبعة الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

تفسير ابن كثير: طبعة عيسى الحلبي.

تفسير أبي سعود:

تفسير الطبري: طبعة مصطفى الحلبي، ١٣٧٣هـ، الثانية.

تفسير المنار: لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية للكتاب.

سنن أبي داود: الطبعة الأولى، مصطفى الحلبي، ١٣٧١هـ.

سنن الترمذي: طبعة مصطفى الحلبي، الأولى، ١٣٨٢هـ.

صحيح البخاري: الطبعة الأمرية، ١٣١٣هـ.

صحيح مسلم: طبعة دار الطباعة، ١٣٢٩هـ، القاهرة.

صحيح الوابل الصيب: لابن قيم الجوزية.

في ظلال القرآن: لسيد قطب، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان).

لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ.

مدارج السالكين: لابن قيم الجوزية.

مسند الإمام أحمد: المكتب الإسلامي، دار صادر.

المصباح المنير: المطبعة الأميرية، ١٩١٢م، الثالثة.

المعجم الوسيط، دار الدعوة، تركيا.

فهرس الموضوعات